خطبة صلاة الجمعة 11/7/2014 للشّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(نسألُك الثبات (2) –عوامل الثبات)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 24 - 27]

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: 7]

عن شدّاد بن أوس رضي الله عنه أنّه قال: إنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان يقول في صلاته: **«اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر، والعزيمة على الرّشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شرّ ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم»** [النسائي وهذا لفظه، والترمذي، وأحمد]

أيها الإخوة:

تتحدث خُطب رمضان الأربع عن الثبات على الحق، والاستقامة على البر، والصبر على الطاعة، والتمسك بالكتاب والسنة.

في زمن كثرتْ فيه الفتنُ، وزادتْ فيه الشهواتُ، وترعرعتْ الشكوك والشبهات، فراح المسلمُ القابض على دينه يبحث فيه عن عاصم ويفتش عن مُثبِّت.

ولئن تحدثتِ الخُطبة الماضية عن معنى الثبات وأهميته، فإنَّ خُطبة اليوم تتحدث عن **عوامل الثبات**.

ما الأمور التي تعينك على الثبات على الحق والاستمرار في طريق الهدى؟

ما المعينات التي تحميك من الزلزلة والارتجاج إذا مرتْ بك فتنٌ أو عصفتْ بك شدائد؟

ما العوامل التي إن تمسكتُ بها صمدتُ أمام الشبهات وقويتُ أمام الشهوات؟

عنوان خطبة اليوم:

(عوامل الثبات)

في السنة التاسعة عشرة للهجرة أَسَرَتِ الرومُ عبدَ الله بن حذافة السهمي صاحبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان قد تناهتْ إلى قيصر عظيم الروم أخبارُ جند المسلمين وما يتحلَّون به من صدقِ الإيمان ورسوخِ العقيدة وثباتٍ على الحق.

فجيء بالأسير إلى قيصر، فنظر له مليَّاً ثم دار بينهما هذا الحوار:

قال قيصر: أعرضُ عليك أن تترك دينك وتتنصر... فإن فعلتَ خليتُ سبيلَكَ وأكرمتُ مثواك. قال عبد الله: هيهات... إن الموتَ أحبُّ إليَّ ألف مرةٍ مما تدعوني إليه.

قال قيصر: إن أجبتني إلى قولي أشركتُكَ في أمري وقاسمتُكَ سلطاني.

عبد الله: والله لو أعطيتني جميع ما تملك، وجميع ما ملكتْهُ العجمُ على أن أرجع عن دين محمدٍ صلى الله عليه وسلم طرفةَ عينٍ ما رجعْتُ.

قيصر: إذن أقتلُك.

عبد الله: أنت وما تريد.

ثم أمر به فصُلبَ، وقال لقناصته بالرومية: ارموهُ قريباً من يديه ورجليه، فرموه وهو يعرضُ عليه الخروج من الإسلام فلا يفعل.

فأمرهم أن يكفُّوا عنه، وأمر بإنزاله عن خشبة الصلب، ودعا بالبقرة -والبقرة قِدرٌ عظيمةٌ من نحاس يوضع فيه زيت توقد عليه النار حتى يغلي- ودعا برجلٍ من أسرى المسلمين فألقاه فيها فإذا عظامه تلوح على مرأىً من عبد الله.

ثم أمر بعبد الله أن يُلقى فيها، فبكى عبد الله.

قال: رُدُّوه! وظنَّ أنه قد جَزِع.

فلما قام بين يديه عرض عليه الخروج من الإسلام فأبى.

قال: فلم بكيتَ إذاً؟!

قال عبد الله: لا تحسبْ أني بكيتُ جزعاً مما تريد أن تصنع بي, ولكني بكيتُ لأني لا أملك إلا نفساً واحدةً تموت في سبيل الله، والله كنتُ أحب أن يكون لي من الأنفس عددُ كلِّ شعرة فيَّ، ثم تُسَلَّط علي فتفعل بي هذا.

دهشَ قيصر من ثبات عبد الله فقال: قَبِّلْ رأسي وأخلِّي عنك.

قال عبد الله: وعن جميع أسارى المسلمين.

فقبَّل رأسهُ وأطلقهُ وأطلق معه ثمانين من أسارى المسلمين، وقيل أكثر.

فلما قدموا على عمر بن الخطاب ﷺ قام إليه عمرُ فقبَّل رأسَهُ، وقال: حقٌّ على كل مسلمٍ أن يقبِّل رأسَ عبد الله بن حذافة السهمي.

إن وِقفةَ عبد الله بن حذافة السهمي وقفةُ ثباتٍ في وقتِ فتنةٍ وشدةٍ وكربٍ تُضاهي ثبات الجبال الراسيات في وجه الرياح العاصفات.

إنها وقفةُ استقامة في موقف زلزلة وارتجاج.

تُرى ما الذي جعل سيدنا عبد الله يثبُتُ فلا يجزعُ، ويصبرُ فلا يفزع، ويصمد فلا يهلع؟

إنها عوامل الثبات.

وجدتُ من عوامل الثبات ستةً تعرضُ خُطبة اليوم ثلاثةً لتعرضَ الباقياتِ خطبةُ الأسبوع القادم بإذن الله:

أولها– اللجأ إلى الله تعالى والضراعة إليه:

ذلك لأن قُلُوب بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُصَرِّفُهَا حَيْثُ يَشَاءُ، من شاء أقام ومن شاء أزاغ، والمؤمنون يعلمون أنهم لا يقدرون على شيءٍ إلا بعد فضل الله لهذا تجدهم يضرعون إليه: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8] ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: 250]

كَـانَ رَسُـولُ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ يُكْثِـرُ أَنْ يَقُـولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُـوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِـكَ**» [الترمذي وابن ماجه]. ويقول في صلاته: «**اللهمّ إنّي أسألك الثّبات في الأمر والعزيمة على الرّشد**» [النسائي وهذا لفظه. والترمذي، وأحمد]

ويتعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الحَور بعد الكَور، فيسأل راوي الحديث شيخه مَا الْحَوْرُ بَعْدَ الْكَوْرِ؟ فيقول: هُوَ الرَّجُلُ يَكُونُ صَالِحًا، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَكُونُ امْرَأَ سُوءٍ.

ويدعو سيدنا عبد الله بن مسعود: (اللهم إني أسألك إيمانًا لا يرتدّ، ونعيمًا لا ينفد) [رواه أحمد]

فأول وسيلة من وسائل الثبات: أن تستعين برب الأرض والسماوات؛ فمن أعانه الله فهو المعان، ومن خذله الله فهو المخذول.

أرادت النسوةُ الإيقاع بيوسف عليه السلام فنادى ربه ضارعاً: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: 33] فكان أن ثبته ملك الملوك وصرف عنه السوء: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

فمن توكل على الله كفاه، ومن اعتصم به نجاه، ومن استعان به هداه، ومن رغب إليه آواه، ومن ناداه أجاب نداه.

فأول عوامل الثبات أن تطرح قلبك بين يدي ربك وتنادي عليه بالليل والنهار أن يثبتك بقوله الثابت في الحياة الدنيا والآخرة.

ثانيها– قراءة القرآن الكريم بتدبر:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 32] ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 101، 102] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: 23– 33]

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاتَّبَعَ مَا فِيهِ هَدَاهُ اللَّهُ مِنَ الضَّلَالَةِ، وَوَقَاهُ سُوءَ الْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: 123])

والقرآنُ الكريم عامل ثباتٍ؛ لأن المؤمن يرجع إليه عند الشدة فيقرأُ فيه: ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ فتسكنُ نفسُه المتألمةُ من العسر، وتطمئن لليسر القادم.

يرى الباطل في انتفاخ وأهلَه كالزبد في ارتفاع فيقرأ قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196– 197] فيهدأُ اضطرابه ويرتاح للعاقبة.

يشعر في التزامه بتعاليم الدين بالغربة بين أقرانه فيقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ [ص: 24] ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13] فيفرح لأنه من القليل الصالح.

فيُثبتُ القرآنُ في قلب المؤمن الإيمانَ، ويقصُّ عليه قصص السابقين من أهل الخير وأهل الشر، ويبين له عاقبة كلٍّ، ويتولى عنه الرد على كثيرٍ من الشكوك والشبهات، فتنزل آياته برداً وسلاماً على قلبه، فلا تعصفُ به رياحُ الفتنة، ولا تزيله عن ثباته نيران الشهوة.

تُرى، ما أثر قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: 3] على نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما قال المشركون: ودَّع محمداً ربُّه...؟

ما أثر قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [النور: 11] على نفس السيدة عائشة لما أشاع المنافقون عنها ما أشاعوا؟

أليس تثبيتاً على تثبيتٍ، وربطاً على القلوبِ المؤمنة، ورداً على الشبهات، وإسكاتاً لأهل الباطل..؟.

ثم إني لأتخيَّل حالَ الصحابة الكرام عندما سمعوا البيانَ الإلهي يقول: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: 18] أتخيلهم يطيرون من الفرح لسماعهم رضى الله تعالى عليهم، فيزدادون ثباتاً على الحق وتضحيةً في سبيله، وتصميماً على متابعة السير على الصراط المستقيم.

ثالثها– التربية الإيمانية العلمية الواعية:

إنَّ اللحاقَ بمجالس العلم والذكر، إنَّ قصدَك للسلوك على يد الثقات من العلماء، إنَّ تعلُّقَ قلبِك بالمسجد وروّاده إذا خرجتَ منه حتى تعود إليه، إنَّ تلقيكَ للتربية الإيمانية الصحيحة؛ يقوِّي إرادتَك في طريق الخير، وعزيمتَك في طلبه، وثباتك على نهجه.

لأنَّ التربيةَ الإيمانية تنتشلُك من دنيا الماء والطين لتحيي قلبَك بالصلة بالله وفكرَك بالقيم والفضائل الساميات.

ولأنَّ التربية الإيمانية تأخذُك من العبودية للعبيد لتسموَ بك للعبودية لله وحدَه.

ولأنَّ تربيةَ مجالس العلم والذكر ترفعُك عن اللهو والاهتمامات الصغيرة إلى الاهتمامات الرفيعة الكبيرة.

تأخذُك للهداية بعد الضلال، وللاستقامة بعد الحيرة، وللرؤية الواضحة بعد الغَبَش، وللعيشِ مع الله تعالى بعد العيش بعيداً عنه.

هناك ستجدُ نفسَك صامداً أمام الشهوات عندما تعرضُ لك، ومتسلِّحاً بالعلم أمام الشبهاتِ عندما تُلقَى في طريقك، وثابتاً في درب الهداية والخير.

أيها الإخوة:

هذه عواملُ ثلاثةٌ تعينُ على الثبات على الحق، والاستقامة على البر، والصبر على الطاعة، والتمسك بالكتاب والسنة.. وللموضوع تتمة.

اللهم يا مقلب القلوب ثبِّتْ قلوبنا على دينك، وثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

والحمد لله رب العالمين